مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [١]

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقولُ تعالى مُخبراً عن قُدرته العظيمة: أنَّ مَن تَوَلّى عن نُصرةِ دينه، وإقامةِ شريعته، فإنَّ الله يستبدلُ به مَن هُوَ خيرٌ لها منه، وأشدُّ مَنَعَةً، وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ [٣]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٤] أي: بممتنع ولا صعب.

---

(١) المائدة: ٥٤- ٥٦.

(٢) محمد: من الآية ٣٨.

(٣) النساء: من الآية ١٣٣.

(٤) إبراهيم: ١٩، ٢٠.

وقال تعالى هَهُنَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ أي: يرجع عن الحقِّ إلى الباطلِ ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

هذه صفات المؤمنين الكُمَّل: أن يكون أحدُهم متواضعاً لأخيه ووليِّه، مُتعزِّزاً على خَصمه وعدوِّه، كما قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١)

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ﴾ أي: لا يردُّهم عمَّا هُم فيه - من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - لا يردُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصُدُّهم عنه صادٌّ، ولا تُخيفهم لومةُ لائم،ولا عذل عاذل.

روى الإمامُ أحمدُ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ: « أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ » (٢)

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي: من اتَّصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: واسع الفضل، عليمٌ بمَن يستحقُّ ذلك.

---

(١) محمد: من الآية ٢٩.

(٢) أحمد: مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري ﷺ رقم ٢٠٤٤٧.

أخي المسلم: تدبَّر هذه الآيةَ، واستمسك بما تُرشِدُ إليه من صفاتِ أولئك الذين يُؤتيهم الله من فضله، ويوفّقهم لنَصْره، ويختارهم لدِينه من بين خَلْقه.

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

ومَن أحسنَ تدبُّر هذه الصفات، استطاع - بتوفيق الله - أن يأخُذَ نفسَه بما يحبُّ الله ويرضى، لا بما تُمليه الأهواءُ والشهوات.

إن المؤمن - وهو يتلو كتابَ ربِّه ويعملُ به - يعرف وسائلَه في تحقيق غايته.

يعرفُ أنَّ صفاتِ النفس هي الأصلُ فيما يرجوه من فضل ربِّه ورحمته.

وهذه الصفات تُتْلَى على الناس في آياتٍ، وتُرَى في وقائعَ وأحداث، وتُنْظَر في سُنَنٍ ماضيةٍ باقية.

إن الإيمانَ له دلالتُه وحلاوتُه، ودلالةُ الإيمان تُرَى في عمل، وحلاوتُه لا تكون إلا لمنْ كانت هذه أُولَى صفاته، كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَان: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّه، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » (١)

وهل يمكن أن يكونَ أهلُ الإيمان كذلك إلاّ إذا كانوا كما قال الله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أنْ يكون المؤمن متواضعاً لأخيه ووليِّه،

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٥.

مُتعزِّزاً على خَصمه وعدوِّه.

صفاتٌ لا بُدَّ أن تتحقَّقَ لِمَن يختارهم الله لنُصرَة دينه ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

فكيف إذا تبدَّلت هذه الصفاتُ، وظهرت أضدادُها في جيلٍ من الأجيال ؟

هل يُطوَى دينُ الله، ويُتْرَك الأمرُ للضياع والفساد ؟

إنَّ دينَ الله لا يُطْوَى، وشَمْسُه لا تغيب. إنْ بَارَحَتْ روؤسَ قومٍ أنارتْ عند آخرين.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

وَعْدٌ من الله. والله لا يخلفُ وعدَه. فلنُراجع أنفسنا ونحن نرى ما نرى من كيد أعدائنا؛ فإن ذنوبَنا أخوفُ علينا من عدوِّنا، وإنَّ فُرْقَتَنا سلاحُ نصرٍ لعدوِّنا.

« وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » (١) فليكُنْ حُبكُم في الله، لا في شيء سواه « وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » (٢) كما أمركم الله « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ » (٣)

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٨١.
(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم ٥٦٠٤.
(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم ٤٦٥٠.

ابْحَثُوا عن مقتضى الإيمان ودلالته، وحلاوته في روابطكم، واشغلوا أنفسكم بذلك؛ فإنَّ ما وقع بكم هو من عند أنفسكم، لا من كَيْدِ عدوِّكم.

واجعلوا جهادَكم - في حياتكم كُلِّها - في سبيلِ الله، لا في شيء سواه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

عندئذٍ تُدركون ما يُخاطبكم الله به في قوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(١) آل عمران: ١١٨- ١٢٠.